الباب الأول

في فَضْلِ العَقْلِ وذَمِّ الهَوَى

obeikandl.com

الباب الأول

في فَضْلِ العَقْلِ وَذَمِّ الهَوَى

[العقل أس الفضائل][1]

اعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ فَضِيلَةٍ أُسًّا[2] وَلِكُلِّ أَدَبٍ يَنْبُوعًا، وأُسُّ الْفَضَائِلِ وَيَنْبُوعُ[3] الْآدَابِ هُوَ الْعَقْلُ الَّذِي جَعَلَهُ اللَّهُ تَعَالَى لِلدِّينِ أَصْلًا وَلِلدُّنْيَا عِمَادًا، فَأَوْجَبَ الدِّينَ بِكَمَالِهِ وَجَعَلَ الدُّنْيَا مُدَبَّرَةً بِأَحْكَامِهِ، وَأَلَّفَ بِهِ بَيْنَ خَلْقِهِ مَعَ اخْتِلَافِ هَمِمِهِمْ وَمَآرِبِهِمْ[4]، وَتَبَايُنِ أَغْرَاضِهِمْ وَمَقَاصِدِهِمْ، وَجَعَلَ مَا تَعَبَّدَهُمْ[5] بِهِ قِسْمَيْنِ: قِسْمًا وَجَبَ بِالْعَقْلِ فَوَكَّدَهُ الشَّرْعُ، وَقِسْمًا جَازَ فِي الْعَقْلِ فَأَوْجَبَهُ الشَّرْعُ فَكَانَ الْعَقْلُ لَهُمَا عِمَادًا.

رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا اكْتَسَبَ الْمَرْءُ مِثْلَ عَقْلٍ يَهْدِي صَاحِبَهُ إِلَى هُدًى، أَوْ يَرُدُّهُ عَنْ رَدًى»[6]، وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ عُمُلٌ دِعَامَةٌ وَدِعَامَةُ عَمَلِ الْمَرْءِ عَقْلُهُ»[7] فَبِقَدْرِ عَقْلِهِ تَكُونُ عِبَادَتُهُ لِرَبِّهِ أَمَا سَمِعْتُمْ قَوْلَ الْفُجَّارِ ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]. وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: أَصْلُ الرَّجُلِ عَقْلُهُ، وَحَسَبُهُ دِينُهُ، وَمُرُوءَتُهُ خُلُقُهُ. وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: مَا اسْتَوْدَعَ اللَّهُ أَحَدًا عَقْلًا إِلَّا اسْتَنْقَذَهُ بِهِ يَوْمًا مَا[8]. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْعَقْلُ أَفْضَلُ مَرْجُوٍّ، والْجَهْلُ أَنْكَى[9] عَدُوٍّ. وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ: صَدِيقُ كُلِّ امْرِئٍ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: خَيْرُ الْمَوَاهِبِ الْعَقْلُ، وَشَرُّ الْمَصَائِبِ الْجَهْلُ.

وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ، وَهُوَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ حَسَّانَ:

---

(١) العنوان من وضع الأستاذ السقا في طبعته ص ٤٣.

(٢) الأس: الأساس، وهو الأصل الذي يقوم عليه، ومنه أساسُ البيت.

(٣) أصل الينبوع: العين المتفجرة بالماء.

(٤) المآرب: الحاجات مفردها مأربة.

(٥) ما تعبدهم: ما كلفهم به من الفرائض والنوافل.

(٦) عزاه السيوطي في الجامع الصغير إلى الطبراني في الأوسط، والبيهقي في جامع شعب الإيمان، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير رقم ٥٠٠٩، ٥٠١٠.

(٧) انظر مسند الحارث بن أبي أسامة ٨٤٩، والإسناد تالف، وانظر تخريج العراقي على الإحياء ١/ ٧٥٥.

(٨) استنقذه: نجَّاهُ وخلصه مما يقعُ فيه.

(٩) أنكى: من النكاية وهي الضرر الشديد.

يَزِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ صِحَّةُ عَقْلِهِ وَإِنْ كَانَ مَحْظُورًا عَلَيْهِ مَكَاسِبُهْ
يَشِينُ الْفَتَى فِي النَّاسِ قِلَّةُ عَقْلِهِ وَإِنْ كَرُمَتْ أَعْرَاقُهُ وَمَنَاسِبُهْ[1]
يَعِيشُ الْفَتَى بِالْعَقْلِ فِي النَّاسِ إِنَّهُ عَلَى الْعَقْلِ يَجْرِي عِلْمُهُ وَتَجَارِبُهْ
وَأَفْضَلُ قَسْمِ اللَّهِ لِلْمَرْءِ عَقْلُهُ فَلَيْسَ مِنَ الْأَشْيَاءِ شَيْءٌ يُقَارِبُهْ
إِذَا أَكْمَلَ الرَّحْمَنُ لِلْمَرْءِ عَقْلَهُ فَقَدْ كَمُلَتْ أَخْلَاقُهُ وَمَآرِبُهْ

وَاعْلَمْ أَنَّ بِالْعَقْلِ تُعْرَفُ حَقَائِقُ الْأُمُورِ وَيُفْصَلُ بَيْنَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ.

وَقَدْ يَنْقَسِمُ قِسْمَيْنِ: غَرِيزِيٌّ وَمُكْتَسَبٌ[2].

فَالْغَرِيزِيُّ هُوَ الْعَقْلُ الْحَقِيقِيُّ. وَلَهُ حَدٌّ يَتَعَلَّقُ بِهِ التَّكْلِيفُ لَا يُجَاوِزُهُ إِلَى زِيَادَةٍ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ إِلَى نُقْصَانٍ. وَبِهِ يَمْتَازُ الْإِنْسَانُ عَنْ سَائِرِ الْحَيَوَانِ، فَإِذَا تَمَّ فِي الْإِنْسَانِ سُمِّيَ عَاقِلًا وَخَرَجَ بِهِ إِلَى حَدِّ الْكَمَالِ كَمَا قَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ الْقُدُّوسِ[3].

إِذَا تَمَّ عَقْلُ الْمَرْءِ تَمَّتْ أُمُورُهُ وَتَمَّتْ أَمَانِيهِ وَتَمَّ بِنَاؤُهُ[4]

وَرَوَى الضَّحَّاكُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠]، أَيْ مَنْ كَانَ عَاقِلًا وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِيهِ وَفِي صِفَتِهِ عَلَى مَذَاهِبَ شَتَّى. فَقَالَ قَوْمٌ: هُوَ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ[5] يُفْصَلُ بِهِ بَيْنَ حَقَائِقِ الْمَعْلُومَاتِ. وَمَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ اخْتَلَفُوا فِي مَحَلِّهِ. فَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ مَحَلُّهُ الدِّمَاغُ؛ لِأَنَّ الدِّمَاغَ مَحَلُّ الْحِسِّ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ أُخْرَى مِنْهُمْ مَحَلُّهُ الْقَلْبُ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ مَعْدِنُ الْحَيَاةِ وَمَادَّةُ الْحَوَاسِّ. وَهَذَا الْقَوْلُ فِي الْعَقْلِ بِأَنَّهُ جَوْهَرٌ لَطِيفٌ فَاسِدٌ مِنْ وَجْهَيْنِ:

* أَحَدُهُمَا: إِنَّ الْجَوَاهِرَ مُتَمَاثِلَةٌ فَلَا يَصِحُّ أَنْ يُوجِبَ بَعْضُهَا مَا لَا يُوجِبُ سَائِرُهَا. وَلَوْ أَوْجَبَ سَائِرُهَا مَا يُوجِبُ بَعْضُهَا لَاسْتَغْنَى الْعَاقِلُ بِوُجُودِ نَفْسِهِ عَنْ وُجُودِ عَقْلِهِ.

* وَالثَّانِي: أَنَّ الْجَوْهَرَ يَصِحُّ قِيَامُهُ بِذَاتِهِ. فَلَوْ كَانَ الْعَقْلُ جَوْهَرًا لَجَازَ أَنْ يَكُونَ عَقْلٌ بِغَيْرِ عَاقِلٍ كَمَا

---

(١) المراد بقلة العقل وصحته في البيتين، صواب الرأي أو فساده والمناسب: الأنساب.

(٢) العقل الغريزي: ما كان عن طريق الوراثة، وهو ما يكون في الجبلة أما العقل المكتسب، فهو ما يأتي عن طريق تجارب الحياة والثقافة.

(٣) صالح بن عبد القدوس، شاعر حكيم، اتُّهم بالزندقة، وقتلَهُ الخليفة المهدي ببغداد بسبب هذه التهمة انظر معجم الأدباء ٤/ ١٤٤٥.

(٤) انظر روضة العقلاء لأبي حاتم البستي ص١١ حيث نسبها إلى عبد العزيز بن سليمان الأبرش.

(٥) هو الذي أصله روحاني لا يُرَى بالأبصار.

جَازَ أَنْ يَكُونَ جِسْمٌ بِغَيْرِ عَقْلٍ فَامْتَنَعَ بِهَذَيْنِ أَنْ يَكُونَ الْعَقْلُ جَوْهَرًا. وَقَالَ آخَرُونَ: الْعَقْلُ هُوَ الْمُدْرِكُ لِلْأَشْيَاءِ عَلَى مَا هِيَ عَلَيْهِ مِنْ حَقَائِقِ الْمَعْنَى. وَهَذَا الْقَوْلُ وَإِنْ كَانَ أَقْرَبَ مِمَّا قَبْلَهُ فَبَعِيدٌ مِنَ الصَّوَابِ مِنْ وَجْهٍ وَاحِدٍ وَهُوَ أَنَّ الْإِدْرَاكَ مِنْ صِفَاتِ الْحَيِّ، وَالْعَقْلُ عَرَضٌ يَسْتَحِيلُ ذَلِكَ مِنْهُ كَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مُتَلَذِّذًا أَوْ آلِمًا أَوْ مُشْتَهِيًا.

وَقَالَ آخَرُونَ مِنَ الْمُتَكَلِّمِينَ: الْعَقْلُ هُوَ جُمْلَةُ عُلُومٍ ضَرُورِيَّةٍ وَهَذَا الْحَدُّ غَيْرُ مَحْصُورٍ لِمَا تَضَمَّنَهُ مِنَ الْإِجْمَالِ، وَيَتَأَوَّلُهُ مِنَ الاحتمالِ، وَالْحَدُّ إِنَّمَا هُوَ بَيَانُ الْمَحْدُودِ بِمَا يَنْفِي عَنْهُ الْإِجْمَالَ وَالاحْتِمَالَ. وَقَالَ آخَرُونَ، وَهُوَ الْقَوْلُ الصَّحِيحُ: إِنَّ الْعَقْلَ هُوَ الْعِلْمُ بِالْمُدْرَكَاتِ الضَّرُورِيَّةِ. وَذَلِكَ نَوْعَانِ:

* أَحَدُهُمَا: مَا وَقَعَ عَنْ دَرَكِ الْحَوَاسِّ.

* وَالثَّانِي: مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي النُّفُوسِ.

فَأَمَّا مَا كَانَ وَاقِعًا عَنْ دَرَكِ الْحَوَاسِّ فَمِثْلُ الْمَرْئِيَّاتِ الْمُدْرَكَةِ بِالنَّظَرِ، وَالْأَصْوَاتِ الْمُدْرَكَةِ بِالسَّمْعِ، وَالطُّعُومِ الْمُدْرَكَةِ بِالذَّوْقِ، وَالرَّوَائِحِ الْمُدْرَكَةِ بِالشَّمِّ، وَالْأَجْسَامِ الْمُدْرَكَةِ بِاللَّمْسِ، فَإِذَا كَانَ الْإِنْسَانُ مِمَّنْ لَوْ أُدْرِكَ بِحَوَاسِّهِ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ ثَبَتَ لَهُ هَذَا النَّوْعُ مِنَ الْعِلْمِ؛ لِأَنَّ خُرُوجَهُ فِي حَالِ تَغْمِيضِ عَيْنَيْهِ مِنْ أَنْ يُدْرِكَ بِهِمَا وَيَعْلَمَ لَا يُخْرِجُهُ مِنْ أَنْ يَكُونَ كَامِلَ الْعَقْلِ مِنْ حَيْثُ عُلِمَ مِنْ حَالِهِ أَنَّهُ لَوْ أَدْرَكَ لَعَلِمَ. وَأَمَّا مَا كَانَ مُبْتَدِئًا فِي النُّفُوسِ فَكَالْعِلْمِ بِأَنَّ الشَّيْءَ لَا يَخْلُو مِنْ وُجُودٍ أَوْ عَدَمٍ، وَأَنَّ الْمَوْجُودَ لَا يَخْلُو مِنْ حُدُوثٍ أَوْ قِدَمٍ، وَأَنَّ مِنَ الْمُحَالِ اجْتِمَاعَ الضِّدَّيْنِ، وَأَنَّ الْوَاحِدَ أَقَلُّ مِنَ الاثْنَيْنِ. وَهَذَا النَّوْعُ مِنَ الْعِلْمِ لَا يَجُوزُ أَنْ يَنْتَفِيَ عَنِ الْعَاقِلِ مَعَ سَلَامَةِ حَالِهِ، وَكَمَالِ عَقْلِهِ، فَإِذَا صَارَ عَالِمًا بِالْمُدْرَكَاتِ الضَّرُورِيَّةِ مِنْ هَذَيْنِ النَّوْعَيْنِ فَهُوَ كَامِلُ الْعَقْلِ وَسُمِّيَ بِذَلِكَ تَشْبِيهًا بِعَقْلِ النَّاقَةِ؛ لِأَنَّ الْعَقْلَ يَمْنَعُ الْإِنْسَانَ مِنَ الْإِقْدَامِ عَلَى شَهَوَاتِهِ إِذَا قَبُحَتْ، كَمَا يَمْنَعُ الْعَقْلُ النَّاقَةَ مِنَ الشُّرُودِ إِذَا نَفَرَتْ. وَلِذَلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ قَيْسٍ [1]: إِذَا عَقَلَكَ عَقْلُكَ عَمَّا لَا يَنْبَغِي فَأَنْتَ عَاقِلٌ. وَقَدْ جَاءَتِ السُّنَّةُ بِمَا يُؤَيِّدُ هَذَا الْقَوْلَ فِي الْعَقْلِ، وَهُوَ مَا رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْعَقْلُ نُورٌ فِي الْقَلْبِ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ» [2]. وَكُلُّ مَنْ نَفَى أَنْ يَكُونَ الْعَقْلُ جَوْهَرًا أَثْبَتَ مَحَلَّهُ فِي الْقَلْبِ؛ لِأَنَّ الْقَلْبَ مَحَلُّ الْعُلُومِ كُلِّهَا. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]. فَدَلَّتْ هَذِهِ الآيَةُ عَلَى أَمْرَيْنِ:

---

(١) هو عامر بن عبد الله المعروف بابن عبد قيس أحد الثقات ومن كبار أئمة التابعين، انظر سير أعلام النبلاء ٤/ ١٥.

(٢) ليس من أقوال النبي ﷺ ونسبته إلى غير صحيحة، وقد ذكر في روضة العقلاء لأبي حاتم البستي منسوبًا لبعض الحكماء.

* أَحَدِهما: أَنَّ الْعَقْلَ عِلْمٌ.

* والثَّاني: أَنَّ مَحَلَّهُ الْقَلْبُ.

وَفِي قَوله تعالى: ﴿ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾، تَأْوِيلَانِ: أَحَدُهُمَا: يَعْلَمُونَ بِهَا، والثَّانِ]: يَعْتَبِرُونَ بِهَا. فَهَذِهِ جُمْلَةُ الْقَوْلِ فِي الْعَقْلِ الْغَرِيزِيِّ. وأَمَّا الْعَقْلُ الْمُكْتَسَبُ فَهُوَ نَتِيجَةُ الْعَقْلِ الْغَرِيزِيِّ وَهُوَ نهايةُ الْمَعْرِفَةِ، وَصِحَّةُ السِّيَاسَةِ، وَإِصَابَةُ الْفِكْرَةِ. وَلَيْسَ لِهَذَا حَدٌّ؛ لِأَنَّهُ يَنْمُو إِنْ اُسْتُعْمِلَ وينْقُصُ إِنْ أُهْمِلَ.

وَنَمَاؤُهُ يَكُونُ بِأَحَدِ وَجْهَيْنِ: إِمَّا بِكَثْرَةِ الاسْتِعْمَالِ إِذَا لَمْ يُعارِضْهُ مَانِعٌ مِنْ هَوًى وَلَا صَادٌّ مِنْ شَهْوَةٍ، كَالَّذِي يَحْصُلُ لِذَوِي الْأَسْنَانِ[1] مِنَ الْحُنْكَةِ وَصِحَّةِ الرَّوِيَّةِ بِكَثْرَةِ التَّجَارِبِ وَمُمَارَسَةِ الْأُمُورِ.

وَلِذَلِكَ حَمِدَتِ الْعَرَبُ آرَاءَ الشُّيُوخِ[2] حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ: الْمَشَايِخُ أَشْجَارُ الْوَقَارِ، وَمَنَاجِعُ الْأَخْبَارِ، لَا يَطِيشُ لَهُمْ سَهْمٌ[3]، وَلَا يَسْقُطُ لَهُمْ وَهْمٌ، إِنْ رَأَوْكَ فِي قَبِيحٍ صَدُّوكَ، وإِنْ أَبْصَرُوكَ عَلَى جَمِيلٍ أَمَدُّوكَ. وَقِيلَ: عَلَيْكُمْ بِآرَاءِ الشُّيُوخِ فَإِنَّهُمْ إِنْ فَقَدُوا ذَكَاءَ الطَّبْعِ فَقَدْ مَرَّتْ عَلَى عُيُونِهِمْ وُجُوهُ الْعِبَرِ، وَتَصَدَّتْ لِأَسْمَاعِهِمْ آثَارُ الْغِيَرِ[4]. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ نَقَصَتْ قُوَّةُ بَدَنِهِ وَزَادَتْ قُوَّةُ عَقْلِهِ. وَقِيلَ فِيهِ: لَا تَدَعُ الْأَيَّامُ جَاهِلًا إِلَّا أَدَّبَتْهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: كَفَى بِالتَّجَارِبِ تَأْدِيبًا وَبِتَقَلُّبِ الْأَيَّامِ عِظَةً.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: التَّجْرِبَةُ مِرْآةُ الْعَقْلِ، وَالْغِرَّةُ[5] ثَمَرَةُ الْجَهْلِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ: كَفَى مُخْبِرًا عَمَّا بَقِيَ مَا مَضَى وَكَفَى عِبَرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا جَرَّبُوا. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْعَقْلَ زَيْنٌ لِأَهْلِهِ ... وَلَكِنْ تَمَامُ الْعَقْلِ طُولُ التَّجَارِبِ[6]

وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا طَالَ عُمْرُ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ آفَةٍ ... أَفَادَتْ لَهُ الْأَيَّامُ فِي كَرِّهَا عَقْلَا

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي فَقَدْ يَكُونُ بِفَرْطِ الذَّكَاءِ وَحُسْنِ الْفِطْنَةِ. وَذَلِكَ جَوْدَةُ الْحَدْسِ فِي زَمَانٍ غَيْرِ

---

(١) المراد بذوي الأسنان كبار السن والذين بلغوا من العمر أرذله.

(٢) المراد بالشيوخ: الكبار، ويطلق لفظ الشيخ على من بلغ رتبة أهل العلم ولو صغيرًا، لأنه خبر الأمور بالعلم والمعرفة.

(٣) طاش السهم: حاد عن الهدف ولم يصبه.

(٤) الغِيَر: من التغير، وهي الأحداث المغيرة لأحوال الناس.

(٥) الغِرَّة: الغفلة، يقال: أخذه على غِرَّة، والمراد به هنا الانخداع بالأماني الباطلة.

(٦) نسبَهُ أبو حاتم البستي في روضة العقلاء ص٣٣ للمنتصر بن بلال الأنصاري.

مُهْمِلٍ لِلْحَدْسِ [1]، فإِذَا امْتَزَجَ بِالْعَقْلِ الْغَرِيزِيِّ صَارَتْ نَتِيجَتُهُمَا نُمُوَّ الْعَقْلِ الْمُكْتَسَبِ كَالَّذِي يَكُونُ فِي الأَحْدَاثِ مِنْ وُفُورِ الْعَقْلِ وَجَوْدَةِ الرَّأْيِ، حَتَّى قَالَ هَرِمُ بْنُ قُطْبَةَ [2] حِينَ تَنَافَرَ إِلَيْهِ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ وَعَلْقَمَةُ بْنُ عُلاثَةَ [3]، عَلَيْكُمْ بِالْحَدِيثِ السِّنِّ، الْحَدِيدِ الذِّهْنِ. وَلَعَلَّ هَرِمًا أَرَادَ أَنْ يَدْفَعَهُمَا عَنْ نَفْسِهِ فَاعْتَذَرَ بِمَا قَالَ. لَكِنْ لَمْ يُنْكِرَا قَوْلَهُ إِذْعَانًا لِلْحَقِّ فَصَارَا إِلَى أَبِي جَهْلٍ لِحَدَاثَةِ سِنِّهِ، وَحِدَّةِ ذِهْنِهِ، فَأَبَى أَنْ يَحْكُمَ بَيْنَهُمَا فَرَجَعَا إِلَى هَرِمٍ فَحَكَمَ بَيْنَهُمَا. وَفِيهِ قَالَ لَبِيدٌ:

يَا هَرِمُ ابْنَ الأَكْرَمِينَ مَنْصِبًا ... إِنَّكَ قَدْ أُوتِيتَ حُكْمًا مُعْجِبَا

وَقَدْ قَالَتْ الْعَرَبُ: عَلَيْكُمْ بِمُشَاوَرَةِ الشَّبَابِ فَإِنَّهُمْ يُنْتِجُونَ رَأْيًا لَمْ يَنَلْهُ طُولُ الْقِدَمِ [4]، وَلَا اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ رُطُوبَةُ الْهَرِمِ [5]. وَقَدْ قَالَ الشَّاعِرُ:

رَأَيْتُ الْعَقْلَ لَمْ يَكُنِ انْتِهَابَا ... وَلَمْ يُقْسَمْ عَلَى عَدَدِ السِّنِينَا

وَلَوْ أَنَّ السِّنِينَ تَقَاسَمَتْهُ ... حَوَى الآبَاءُ أَنْصِبَةَ الْبَنِينَا

وَحَكَى الأَصْمَعِيُّ [6] - رَحِمَهُ اللَّهُ - قَالَ: قُلْتُ لِغُلامٍ حَدَثٍ [7] مِنْ أَوْلَادِ الْعَرَبِ كَانَ يُحَادِثُنِي فَأَمْتَعَنِي بِفَصَاحَةٍ وَمَلَاحَةٍ: أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونَ لَكَ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَأَنْتَ أَحْمَقُ؟ قَالَ: لَا واللَّهِ. قَالَ: فَقُلْتُ: وَلِمَ؟ قَالَ: أَخَافُ أَنْ يَجْنِيَ عَلَيَّ حُمْقِي جِنَايَةً تَذْهَبُ بِمَالِي وَيَبْقَى عَلَيَّ حُمْقِي. فَانْظُرْ إِلَى هَذَا الصَّبِيِّ كَيْفَ اسْتَخْرَجَ بِفَرْطِ ذَكَائِهِ، واسْتَنْبَطَ بِجَوْدَةِ قَرِيحَتِهِ [8] مَا لَعَلَّهُ يَدِقُّ عَلَى مَنْ هُوَ أَكْبَرُ مِنْهُ سِنًّا، وَأَكْثَرُ تَجْرِبَةً. وأَحْسَنُ مِنْ هَذَا الذَّكَاءِ وَالْفِطْنَةِ مَا حَكَى ابْنُ قُتَيْبَةَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ مَرَّ بِصِبْيَانٍ يَلْعَبُونَ وَفِيهِمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ فَهَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا عَبْدَ اللَّهِ.

فَقَالَ لَهُ عُمَرُ ﷺ: مَا لَكَ؟ لِمَ لَا تَهْرُبُ مَعَ أَصْحَابِكَ؟ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَمْ أَكُنْ عَلَى رِيبَةٍ فَأَخَافُكَ، وَلَمْ يَكُنِ الطَّرِيقُ ضَيِّقًا فَأَوَسِّعَ لَكَ.

---

(١) الفراسة وشدة الذكاء من معاني الحدس.

(٢) هو هرم بن قطبة الفزاري، أحد حكماء العرب وحكامهم، أدرك الإسلام، وله صحبة.

(٣) هو عامر بن طفيل بن مالك بن الأحوص أحد سادات بني عامر بن صعصعة وكذلك علقمة بن علاثة بن جعفر من سادات بني عامر، والتنافر بينهما معناه أنهما عظيمان في قومهما، فيؤتى بمن يقضي أيهما أعزُّ نفرًا وهو نظام من أنظمة الجاهلية في القضاء.

(٤) أي رأيًا جديدًا، لم يعرفه القدماء من الشيوخ مع طول خبرتهم وكثرة العقلاء فيهم.

(٥) الهَرِم: الشيخ الكبير.

(٦) الأصمعي: هو أبو سعيد عبد الملك بن قريب، حافظ اللغة والأدب، وراوية العرب، كان تقيًا صالحًا توفى سنة ١١٦هـ.

(٧) الحدَث: هو حديث السن صغيره.

(٨) القريحة: الطبيعة التي جُبِلَ الإنسان عليها.

فَانْظُرْ مَا تَضَمَّنَهُ هَذا الْجَوَابُ مِنَ الْفِطْنَةِ وَقُوَّةِ الْمِنَّةِ وَحُسْنِ الْبَدِيهَةِ. كَيْفَ نَفَى عَنْهُ اللَّوْمَ، وَأَثْبَتَ لَهُ الْحُجَّةَ فَلَيْسَ لِلذَّكَاءِ غَايَةٌ، وَلَا لِجُودَةِ الْقَرِيحَةِ نِهَايَةٌ. وَحُكِيَ أَنَّ سُلَيْمَانَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ أَمَرَ الْفَرَزْدَقَ[1] بِضَرْبِ أَعْنَاقِ أُسَارَى مِنَ الرُّومِ فَاسْتَعْفَاهُ الْفَرَزْدَقُ فَلَمْ يَفْعَلْ، وَأَعْطَاهُ سَيْفًا لَا يَقْطَعُ شَيْئًا فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ بَلْ أَضْرِبُهُمْ بِسَيْفِ أَبِي رَغْوَانَ مُجَاشِعٍ، يَعْنِي سَيْفَ نَفْسِهِ، فَقَامَ فَضَرَبَ بِهِ عُنُقَ رُومِيٍّ مِنْهُمْ فَنَبَا السَّيْفُ عَنْهُ، فَضَحِكَ سُلَيْمَانُ وَمَنْ حَوْلَهُ فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:

أَيَعْجَبُ النَّاسُ أَنْ أَضْحَكْتُ سَيِّدَهُمْ ... خَلِيفَةَ اللَّهِ يُسْتَسْقَى بِهِ الْمَطَرُ

لَمْ يَنْبُ سَيْفِي مِنْ رُعْبٍ وَلَا دَهَشٍ ... عَنِ الْأَسِيرِ وَلَكِنْ أَخَّرَ الْقَدَرُ

وَلَنْ يُقَدِّمَ نَفْسًا قَبْلَ مِيتَتِهَا ... جَمْعُ الْيَدَيْنِ وَلَا الصَّمْصَامَةُ الذَّكَرُ[2]

ثُمَّ غَمَدَ سَيْفَهُ وَهُوَ يَقُولُ:

مَا إِنْ يُعَابُ سَيِّدٌ إِذَا صَبَا ... وَلَا يُعَابُ صَارِمٌ إِذَا نَبَا

وَلَا يُعَابُ شَاعِرٌ إِذَا كَبَا[3]

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ: كَأَنَّ بِابْنِ الْمَرَاغَةِ[4] قَدْ هَجَانِي فَقَالَ:

بِسَيْفِ أَبِي رَغْوَانَ سَيْفِ مُجَاشِعٍ ... ضَرَبْتَ وَلَمْ تَضْرِبْ بِسَيْفِ ابْنِ ظَالِمِ

ثُمَّ قَامَ فَانْصَرَفَ وَحَضَرَ جَرِيرٌ وَخُبِّرَ بِالْخَبَرِ وَلَمْ يُنْشَدْ لَهُ الشِّعْرُ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

بِسَيْفِ أَبِي رَغْوَانَ سَيْفِ مُجَاشِعٍ ... ضَرَبْتَ وَلَمْ تَضْرِبْ بِسَيْفِ ابْنِ ظَالِمِ[5]

ثُمَّ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ كَأَنَّ بِابْنِ الْقَيْنِ[6] وَقَدْ أَجَابَنِي فَقَالَ:

وَلَا نَقْتُلُ الْأَسْرَى وَلَكِنْ نَفُكُّهُمْ ... إِذَا أَثْقَلَ الْأَعْنَاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ

فَاسْتَحْسَنَ سُلَيْمَانُ حَدْسَ الْفَرَزْدَقِ عَلَى جَرِيرٍ ثُمَّ الْفَرَزْدَقَ بِشِعْرِ جَرِيرٍ وَلَمْ يُخْبِرْهُ بِحَدْسِهِ فَقَالَ الْفَرَزْدَقُ:

---

(١) الفرزدق: هو الشاعر الكبير همام بن غالب بن صعصعة التميمي، شاعر عصر بني أمية، وكان ينافس الشاعر جرير في الهجاء، وعُرفت أهاجيهما بالنقائض، توفي سنة ١١٠هـ.

(٢) الصمصامة: السيف الذي لا يثني، والذكر: الحديد الصلب.

(٣) يقال: كبا الرجُل: انكب على وجهه وخرَّ على الأرض.

(٤) أصل المراغة أنثى الحمار، وابن المراغة: كنية كُنّي بها الفرزدق.

(٥) أبو روغان: كنية مجاشع جَدّ الفرزدق، والمقصود بسيف ابن ظالم، سيف المهلب بن أبي صفرة.

(٦) المراد بالقين: الصائغ وهو يريد به الفرزدق لأن آباءه كانوا صاغة في البصرة.

كَـذَاك سُـيُـوفُ الْهِندِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا وَتَـقْـطَـعُ أَحْـيَـانًـا مَـنَـاطَ التَّمَائِمِ[1]

وَلَـنْ نَقْتُلَ الْأَسْـرَى وَلَـكِـنْ نَفُكُّهُمْ إِذَا أَثْـقَـلَ الْأَعْـنَـاقَ حَمْلُ الْمَغَارِمِ

وَهَـلْ ضَـرْبَـةُ الـرُّومِـيِّ جَاعِلَةٌ لَكُمْ أَبًـا عَـنْ كُلَيْبٍ أَوْ أَخًـا مِثْلَ دَارِمِ[2]

فَشَاعَ حَدِيثُ الْفَرَزْدَقِ بِهَذا حَتَّى حُكِيَ أَنَّ الْمَهْدِيَّ أَتَى بِأَسْرَى مِنَ الرُّوم فَأَمَرَ بِقَتْلِهِمْ وَكَانَ عِنْدَهُ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ[3] فَقَالَ لَهُ: اضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْعِلْجِ[4]، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْتَ مَا ابْتُلِيَ بِهِ الْفَرَزْدَقُ فَعُيِّرَ بِهِ قَوْمٌ إِلَى الْيَوْمِ؛ فَقَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ تَشْرِيفَك وَقَدْ أَعْفَيْتُك. وَكَانَ أَبُو الْهَوْلِ[5] الشَّاعِرُ حَاضِرًا فَقَالَ:

جَـزِعْـتَ مِـنَ الـرُّومِـيِّ وَهُـوَ مُقَيَّدٌ فَكَيْفَ وَلَـوْ لَاقَـيْـتَـهُ وَهُـوَ مُطْلَقُ

دَعَـاكَ أَمِـيـرُ الْـمُـؤْمِـنِـيـنَ لِقَتْلِهِ فَـكَـادَ شَبِيبٌ عِـنْـدَ ذَلِـكَ يَـفْـرَقُ

تَـنَـحَّ شَـبِـيـبًـا عَـنْ قِـرَاعِ كَتِيبَةٍ وَاذْنُ شَـبِـيـبًـا مِـنْ كَـلَامٍ يُـلَـفَّـقُ

وَلَيْسَ الْعَجَبُ مِنْ كَلَامِ الْفَرَزْدَقِ إِنْ صَحَّ مِنْ جَوْدَةِ الْقَرِيحَتَيْنِ وَلَكِنْ مِنِ اتِّفَاقِ الْخَاطِرَيْنِ. ولِمِثْلِ ذَلِكَ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ: آيَةُ الْعَقْلِ سُرْعَةُ الْفَهْمِ، وَغَايَتُهُ إِصَابَةُ الْوَهْمِ، وَلَيْسَ لِمَنْ مُنِحَ جَوْدَةَ الْقَرِيحَةِ وَسُرْعَةَ الْخَاطِرِ عَجْزٌ عَنْ جَوَابٍ وَإِنْ أُعْضِلَ، كَمَا قِيلَ لِعَلِيٍّ ﷺ: كَيْفَ يُحَاسِبُ اللَّهُ الْعِبَادَ عَلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ قَالَ: كَمَا يَرْزُقُهُمْ عَلَى كَثْرَةِ عَدَدِهِمْ. وَقِيلَ لِعَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَيْنَ تَذْهَبُ الْأَرْوَاحُ إِذَا فَارَقَتِ الْأَجْسَادَ؟ قَالَ: أَيْنَ تَذْهَبُ نَارُ الْمَصَابِيحِ عِنْدَ فَنَاءِ الْأَدْهَانِ[6]؟ وَهَذَانِ الْجَوَابَانِ جَوَابَا إِسْكَاتٍ تَضَمَّنَا دَلِيلَيْ إِذْعَانٍ وَحُجَّتَيْ قَهْرٍ. وَمِنْ غَيْرِ هَذَا الْفَنِّ وَإِنْ كَانَ مُسْكِتًا مَا حُكِيَ عَنْ إِبْلِيسَ - لَعَنَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ حِينَ ظَهَرَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عليه السلام فَقَالَ: أَلَسْتَ تَقُولُ أَنَّهُ لَنْ يُصِيبَكَ إِلَّا مَا كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَارْمِ نَفْسَكَ مِنْ ذُرْوَةِ هَذَا الْجَبَلِ فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدِّرْ لَكَ السَّلَامَةَ تَسْلَمْ. فَقَالَ لَهُ: يَا مَلْعُونُ إِنَّ لِلَّهِ أَنْ يَخْتَبِرَ عِبَادَهُ وَلَيْسَ لِلْعَبْدِ أَنْ يَخْتَبِرَ رَبَّهُ. وَمِثْلُ هَذَا الْجَوَابِ لَا يُسْتَغْرَبُ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِينَ أَمَدَّهُمْ بِوَحْيِهِ، وَأَيَّدَهُمْ بِنَصْرِهِ، وَإِنَّمَا يُسْتَغْرَبُ مِمَّنْ يَلْجَأُ إِلَى خَاطِرِهِ وَيُعَوِّلُ عَلَى

(١) الظُّبَّة: حد السيف الذي يقطع به، والتمائم: جمع تميمة، وهي خرزات تعلق على الصبي اتقاء العين على زعمهم.
(٢) انظر شرح ديوان الفرزدق ص ٨٥٨.
(٣) شبيب بن شيبة الأهتم، من البصرة، صاحب لسان وفصاحة توفى سنة ١٦٢هـ.
(٤) العلج: الرجل الضخم من رجال العجم.
(٥) هو عامر بن عبد الله أو عبد الرحمن الحميري، له مدائح في الرشيد وأولاده، وهو مكثر من شعر الهجاء
(٦) الأدهان: الزيت الذي يوضح في المصباح.

بَدِيهَتِهِ. وَرَوَى قُثَمُ بْنُ الْعَبَّاسِ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - قَالَ: قِيلَ لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؟ قَالَ: دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ. قِيلَ: فَكَمْ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ؟ قَالَ: مَسِيرَةُ يَوْمٍ لِلشَّمْسِ. فَكَانَ هَذَا السُّؤَالُ مِنْ سَائِلِهِ إِمَّا اخْتِبَارًا، وَإِمَّا اسْتِبْصَارًا فَصَدَرَ عَنْهُ مِنَ الْجَوَابِ مَا أَسْكَتَ. فَأَمَّا إِذَا اجْتَمَعَ هَذَانِ الْوَجْهَانِ فِي الْعَقْلِ الْمُكْتَسَبِ وَهُوَ مَا يُنَمِّيهِ فَرْطُ الذَّكَاءِ بِجَوْدَةِ الْحَدْسِ وَصِحَّةِ الْقَرِيحَةِ بِحُسْنِ الْبَدِيهَةِ، مَعَ مَا يُنَمِّيهِ الاسْتِعْمَالُ بِطُولِ التَّجَارِبِ وَمُرُورِ الزَّمَانِ بِكَثْرَةِ الاخْتِبَارِ، فَهُوَ الْعَقْلُ الْكَامِلُ عَلَى الإِطْلَاقِ فِي الرَّجُلِ الْفَاضِلِ الاسْتِحْقَاقِ.

رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: أُثْنِيَ عَلَى رَجُلٍ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِخَيْرٍ فَقَالَ: «كَيْفَ عَقْلُهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ عِبَادَتِهِ، إِنَّ مِنْ خُلُقِهِ، إِنَّ مِنْ فَضْلِهِ، إِنَّ مِنْ أَدَبِهِ. فَقَالَ: «كَيْفَ عَقْلُهُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ نُثْنِي عَلَيْهِ بِالْعِبَادَةِ، وَأَصْنَافِ الْخَيْرِ وَنَسْأَلُنَا عَنْ عَقْلِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «إِنَّ الْأَحْمَقَ الْعَابِدَ يُصِيبُ بِجَهْلِهِ أَعْظَمَ مِنْ فُجُورِ الْفَاجِرِ وَإِنَّمَا يَقْرُبُ النَّاسُ مِنْ رَبِّهِمْ بِالزُّلَفِ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ»[1]. وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي الْعَقْلِ الْمُكْتَسَبِ إِذَا تَنَاهَى وَزَادَ هَلْ يَكُونُ فَضِيلَةً أَمْ لَا فَقَالَ قَوْمٌ: لَا يَكُونُ فَضِيلَةً؛ لأَنَّ الْفَضَائِلَ هَيْئَاتٌ مُتَوَسِّطَةٌ بَيْنَ فَضِيلَتَيْنِ نَاقِصَتَيْنِ، كَمَا أَنَّ الْخَيْرَ تَوَسُّطٌ بَيْنَ رَذِيلَتَيْنِ فَمَا جَاوَزَ التَّوَسُّطَ خَرَجَ عَنْ حَدِّ الْفَضِيلَةِ.

وَقَدْ قَالَتِ الْحُكَمَاءُ لِلإِسْكَنْدَرِ: أَيُّهَا الْمَلِكُ عَلَيْكَ بِالاعْتِدَالِ فِي كُلِّ الْأُمُورِ، فَإِنَّ الزِّيَادَةَ عَيْبٌ وَالنُّقْصَانَ عَجْزٌ. هَذَا مَعَ مَا وَرَدَتْ بِهِ السُّنَّةُ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «خَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا»[2].

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ خَيْرُ الْأُمُورِ النَّمَطُ الْأَوْسَطُ، إِلَيْهِ يَرْجِعُ الْعَالِي، وَمِنْهُ يَلْحَقُ التَّالِي.

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

لَا تَذْهَبَنَّ فِي الْأُمُورِ فَرَطَا ... لَا تَسْأَلَنَّ إِنْ سَأَلْتَ شَطَطَا

وَكُنْ مِنَ النَّاسِ جَمِيعًا وَسَطَا[3]

قَالُوا: لأَنَّ زِيَادَةَ الْعَقْلِ تُفْضِي بِصَاحِبِهَا إِلَى الدَّهَاءِ وَالْمَكْرِ وَذَلِكَ مَذْمُومٌ وَصَاحِبُهُ مَلُومٌ. وَقَدْ أَمَرَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ أَبَا مُوسَى الأَشْعَرِيَّ أَنْ يَعْزِلَ زِيَادًا عَنْ وِلَايَتِهِ فَقَالَ زِيَادٌ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَعَنْ مُوجِدَةٍ أَوْ خِيَانَةٍ؟ فَقَالَ: لَا عَنْ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا، وَلَكِنْ خِفْتُ أَنْ أَحْمِلَ عَلَى النَّاسِ فَضْلَ عَقْلِكَ[4].

---

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادر الأصول ٢/ ٣٥٧، وعزاه العراقي في تخريجه لأحاديث الإحياء إلى داود بن المحبر في كتاب «العقل».

(٢) ذكره السيوطي في الجامع الصغير، وعزاه إلى البيهقي، وضعفه الألباني انظر ضعيف الجامع الصغير رقم ١٢٥٢.

(٣) انظر البيان والتبيين للجاحظ ١/ ٢٥٥، حيث ذكر الأبيات من غير نسبة.

(٤) انظر عيون الأخبار لابن قتيبة ١/ ٤٦٨.

ولِأجْلِ[1] هَذَا المَحْكِيِّ عَنْ عُمَرَ مَا قِيلَ قَديمًا: إفْرَاطُ الْعَقْلِ مُضِرٌّ بِالْجَسَدِ[2].

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: كَفَاكَ مِنْ عَقْلِكَ مَا دَلَّكَ عَلَى سَبِيلِ رُشْدِكَ.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: قَلِيلٌ يَكْفِي خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ يُطْغِي.

وَقَالَ آخَرُونَ، وَهُوَ أَصَحُّ الْقَوْلَيْنِ: زِيَادَةُ الْعَقْلِ فَضِيلَةٌ؛ لِأَنَّ الْمُكْتَسَبَ غَيْرُ مُحْدُودٍ، وإِنَّمَا تَكُونُ زِيَادَةُ الْفَضَائِلِ المَحْمُودَةِ نَقْصًا مَذْمُومًا؛ لِأَنَّ مَا جَاوَزَ الْحَدَّ لَا يُسَمَّى فَضِيلَةً كَالشُّجَاعِ إِذَا زَادَ عَلَى حَدِّ الشَّجَاعَةِ نُسِبَ إِلَى التَّهَوُّرِ[3]، والسَّخِيُّ إِذَا زَادَ عَلَى حَدِّ السَّخَاءِ نُسِبَ إِلَى التَّبْذِيرِ. وَلَيْسَ كَذَلِكَ حَالُ الْعَقْلِ الْمُكْتَسَبِ؛ لِأَنَّ الزِّيَادَةَ فِيهِ زِيَادَةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ وَحُسْنُ إِصَابَةٍ بِالظُّنُونِ وَمَعْرِفَةُ مَا لَمْ يَكُنْ إِلَى مَا يَكُونُ، وَذَلِكَ فَضِيلَةٌ لَا نَقْصٌ. وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «أَفْضَلُ النَّاسِ أَعْقَلُ النَّاسِ»[4]. وَرُوِيَ عَنْهُ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «العَاقِلُ حَيْثُ كَانَ [أَلُوفٌ] مَأْلُوفٌ»[5]، وَقَدْ قِيلَ فِي تَأْوِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِۦ﴾ [الإسراء: ٨٤]، أَيْ بِحَسَبِ عَقْلِهِ.

وَقَالَ الْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ: كَانَتِ الْعَرَبُ تَقُولُ: مَنْ لَمْ يَكُنْ عَقْلُهُ أَغْلَبَ خِصَالِ الْخَيْرِ عَلَيْهِ، كَانَ حَتْفُهُ[6] فِي أَغْلَبِ خِصَالِ الْخَيْرِ عَلَيْهِ. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ: كُلُّ شَيْءٍ إِذَا كَثُرَ رَخُصَ إِلَّا الْعَقْلَ فَإِنَّهُ إِذَا كَثُرَ غَلَا. وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: إِنَّ الْعَاقِلَ مَنْ عَقْلُهُ فِي إِرْشَادٍ، وَمَنْ رَأْيُهُ فِي إِمْدَادٍ، فَقَوْلُهُ سَدِيدٌ، وَفِعْلُهُ حَمِيدٌ، وَالْجَاهِلُ مَنْ جَهْلُهُ فِي إِغْوَاءٍ، وَمَنْ هَوَاهُ فِي إِغْرَاءٍ، فَقَوْلُهُ سَقِيمٌ، وَفِعْلُهُ ذَمِيمٌ، وأَنْشَدَنِي ابْنُ لَنْكَكَ لِأَبِيهِ[7]:

مَنْ لَمْ يَكُنْ أَكْثَرَ عَقْلَهُ ... أَهْلَكَهُ أَكْثَرُ مَا فِيهِ

فَأَمَّا الدَّهَاءُ والمَكْرُ فَهُوَ مَذْمُومٌ؛ لِأَنَّ صَاحِبَهُ صَرَفَ فَضْلَ عَقْلِهِ إِلَى الشَّرِّ وَلَوْ صَرَفَهُ إِلَى الْخَيْرِ لَكَانَ مَحْمُودًا، وَقَدْ ذَكَرَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ فَقَالَ: كَانَ واللَّهِ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ يُخْدَعَ، وأَعْقَلَ مِنْ أَنْ يُخْدَعَ. وَقَالَ عُمَرُ: لَسْتُ بِالْخِبِّ وَلَا يَخْدَعُنِي الْخِبُّ. واخْتَلَفَ النَّاسُ فِيمَنْ صَرَفَ فَضْلَ عَقْلِهِ إِلَى الشَّرِّ كَزِيَادٍ، وأَشْبَاهِهِ مِنَ الدُّهَاةِ، هَلْ يُسَمَّى الدَّاهِيَةُ مِنْهُمْ عَاقِلًا أَمْ لَا؛ فَقَالَ بَعْضُهُمْ:

---

(١) في النسخة «ج» «ومن أجل» بدل «ولأجل».

(٢) ومقصده إذ به يقتحم عظائم الأمور، وكثيرًا ما يهلك دون الوصول إليها.

(٣) والتهور فيه الهلكة دون شك.

(٤) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده ٨٤٦، والحديث موضوع.

(٥) ذكره ابن أبي الدنيا في كتاب المنامات منسوبًا إلى الحسن ولم يرفعه [٤٦] وما بين المعكوفين ساقط من المطبوع، وفيه «العقل» بدل «العاقل».

(٦) الحتف: الهلاك والموت. (٧) هو أبو الحسين إبراهيم بن لكنك، شاعر عباسي، له قدم في اللغة والأدب.

أُسَمِّيهِ عَاقِلًا؛ لِوُجُودِ الْعَقْلِ مِنْهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: لَا أُسَمِّيهِ عَاقِلًا حَتَّى يَكُونَ خَيِّرًا دَيِّنًا؛ لِأَنَّ الْخَيْرَ وَالدِّينَ مِنْ مُوجِبَاتِ الْعَقْلِ. فَأَمَّا الشِّرِّيرُ فَلَا أُسَمِّيهِ عَاقِلًا وَإِنَّمَا أُسَمِّيهِ صَاحِبَ رُوِيَّةٍ وَفِكْرٍ. وَقَدْ قِيلَ: الْعَاقِلُ مَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ أَمْرَهُ وَنَهْيَهُ حَتَّى قَالَ أَصْحَابُ الشَّافِعِيِّ رضي الله عنه فِيمَنْ أَوْصَى بِثُلُثِ مَالِهِ لِأَعْقَلِ النَّاسِ أَنَّهُ يَكُونُ مَصْرُوفًا فِي الزُّهَّادِ؛ لِأَنَّهُمُ انْقَادُوا لِلْعَقْلِ وَلَمْ يَغْتَرُّوا بِالْأَمَلِ. وَرَوَى لُقْمَانُ بْنُ أَبِي عَامِرٍ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «يَا عُوَيْمِرُ ازْدَدْ عَقْلًا تَزْدَدْ مِنْ رَبِّكَ قُرْبًا» قُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، وَمَنْ لِي بِالْعَقْلِ؟ قَالَ: «اجْتَنِبْ مَحَارِمَ اللَّهِ، وَأَدِّ فَرَائِضَ اللَّهِ تَكُنْ عَاقِلًا ثُمَّ تَنَفَّلْ بِصَالِحَاتِ الْأَعْمَالِ تَزْدَدْ فِي الدُّنْيَا عَقْلًا وَتَزْدَدْ مِنْ رَبِّكَ قُرْبًا وَبِهِ عِزًّا»(١).

وَأَنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ، وَذَكَرَ أَنَّهَا لِعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ ﷺ:

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَخْلَاقٌ مُطَهَّرَةٌ ... فَالْعَقْلُ أَوَّلُهَا وَالدِّينُ ثَانِيهَا

وَالْعِلْمُ ثَالِثُهَا وَالْحِلْمُ رَابِعُهَا ... وَالْجُودُ خَامِسُهَا وَالْعُرْفُ سَادِيهَا

وَالْبِرُّ سَابِعُهَا وَالصَّبْرُ ثَامِنُهَا ... وَالشُّكْرُ تَاسِعُهَا وَاللِّينُ عَاشِيهَا

وَالنَّفْسُ تَعْلَمُ أَنِّي لَا أُصَدِّقُهَا ... وَلَسْتُ أَرْشُدُ إِلَّا حِينَ أَعْصِيهَا

وَالْعَيْنُ تَعْلَمُ فِي عَيْنَيْ مُحَدِّثِهَا ... مَنْ كَانَ مِنْ حِزْبِهَا أَوْ مِنْ أَعَادِيهَا

عَيْنَاكَ قَدْ دَلَّتَا عَيْنَيَّ مِنْكَ عَلَى ... أَشْيَاءَ لَوْلَاهُمَا مَا كُنْتُ تُبْدِيهَا(٢)

وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَقْلَ الْمُكْتَسَبَ لَا يَنْفَكُّ عَنِ الْعَقْلِ الْغَرِيزِيِّ؛ لِأَنَّهُ نَتِيجَةٌ مِنْهُ. وَقَدْ يَنْفَكُّ الْعَقْلُ الْغَرِيزِيُّ عَنِ الْعَقْلِ الْمُكْتَسَبِ فَيَكُونَ صَاحِبُهُ مَسْلُوبَ الْفَضَائِلِ، مَوْفُورَ الرَّذَائِلِ، كَالْأَنُوكِ(٣) الَّذِي لَا يَجِدُ لَهُ فَضِيلَةً، وَالْأَحْمَقُ الَّذِي قَلَّ مَا يَخْلُو مِنْ رَذِيلَةٍ، وَقَدْ رُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْأَحْمَقُ كَالْفَخَّارِ لَا يُرَقَّعُ وَلَا يُشَعَّبُ»(٤). وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «الْأَحْمَقُ أَبْغَضُ خَلْقِ اللَّهِ إِلَيْهِ، إِذْ حَرَمَهُ أَعَزَّ الْأَشْيَاءِ عَلَيْهِ»(٥).

---

(١) سبق تخريجه وبيان أنه حديث موضوع.

(٢) ذكرت هذه الأبيات في روضة العقلاء لأبي حاتم البستي ص٢٣ مع اختلاف في بعض الكلمات مثل:

إِنَّ الْمَكَارِمَ أَبْوَابٌ مُصَنَّفَةٌ ... ...

ومعنى «ساديها»: سادسها، ومعنى «عايشها»: عاشرها وقد نُسبت الأبيات في روضة العقلاء لعلي بن محمد البشامي، بينما نسبت هنا للإمام علي بن أبي طالب، فتأمل.

(٣) الأنوك: الأحمق.

(٤) انظر جمع الجوامع للسيوطي ٢/ ٢١٧، ولم يعزه.

(٥) السابق ٢/ ٢١٨ ولم يعزه.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْحَاجَةُ إِلَى الْعَقْلِ أَقْبَحُ مِنَ الْحَاجَةِ إِلَى الْمَالِ، وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: دَوْلَةُ الْجَاهِلِ عِبْرَةُ الْعَاقِلِ، وَقَالَ أُنُوشِرْوَانَ لِبُزُرْجَمْهَرَ: أَيُّ الْأَشْيَاءِ خَيْرٌ لِلْمَرْءِ؟ قَالَ: عَقْلٌ يَعِيشُ بِهِ.

قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: فَإِخْوَانٌ يَسْتُرُونَ عَيْبَهُ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: فَمَالٌ يَتَحَبَّبُ بِهِ إِلَى النَّاسِ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: فَعِيٌّ صَامِتٌ. قَالَ: فَإِنْ لَمْ يَكُنْ؟ قَالَ: فَمَوْتٌ جَارِفٌ. وَقَالَ سَابُورُ بْنُ أَرْدَشِيرَ: الْعَقْلُ نَوْعَانِ: أَحَدُهُمَا مَطْبُوعٌ، وَالْآخَرُ مَسْمُوعٌ. وَلَا يَصْلُحُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا إِلَّا بِصَاحِبِهِ، فَأَخَذَ ذَلِكَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ (١) فَقَالَ:

رَأَيْتُ الْعَقْلَ نَوْعَيْنِ ... فَمَسْمُوعٌ وَمَطْبُوعُ

وَلَا يَنْفَعُ مَسْمُوعٌ ... إِذَا لَمْ يَكُ مَطْبُوعُ

كَمَا لَا تَنْفَعُ الشَّمْسُ ... وَضَوْءُ الْعَيْنِ مَمْنُوعُ

[صفة العاقل والأحمق]

وَقَدْ وَصَفَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ الْعَاقِلَ بِمَا فِيهِ مِنَ الْفَضَائِلِ، وَالْأَحْمَقَ بِمَا فِيهِ مِنَ الرَّذَائِلِ، فَقَالَ: الْعَاقِلُ إِذَا وَالَ بَذَلَ فِي الْمَوَدَّةِ نَصْرَهُ، وَإِذَا عَادَى رَفَعَ عَنِ الظُّلْمِ قَدْرَهُ، فَيُسْعِدُ مَوَالِيَهُ بِعَقْلِهِ، وَيَعْتَصِمُ مُعَادِيهِ بِعَدْلِهِ. إِنْ أُحْسِنَ إِلَى أَحَدٍ تَرَكَ الْمُطَالَبَةَ بِالشُّكْرِ، وَإِنْ أَسَاءَ إِلَيْهِ مُسِيءٌ سَبَّبَ لَهُ أَسْبَابَ الْعُذْرِ، أَوْ مَنَحَهُ الصَّفْحَ وَالْعَفْوَ. وَالْأَحْمَقُ ضَالٌّ مُضِلٌّ إِنْ أُونِسَ تَكَبَّرَ، وَإِنْ أُوحِشَ تَكَدَّرَ، وَإِنْ اسْتُنْطِقَ تَكَلَّفَ، وَإِنْ تُرِكَ تَكَلَّفَ، مُجَالَسَتُهُ مِهْنَةٌ (٢)، وَمُعَاتَبَتُهُ مِحْنَةٌ، وَمُحَاوَرَتُهُ تَعَرٌّ، وَمُوَالَاتُهُ تَضُرُّ، وَمُقَارَبَتُهُ عَمًى، وَمُقَارَنَتُهُ شَقًا. وَكَانَتْ مُلُوكُ الْفُرْسِ إِذَا غَضِبَتْ عَلَى عَاقِلٍ حَبَسَتْهُ مَعَ جَاهِلٍ. وَالْأَحْمَقُ يُسِيءُ إِلَى غَيْرِهِ وَيَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ فَيُطَالِبُهُ بِالشُّكْرِ، وَيُحْسِنُ إِلَيْهِ فَيَظُنُّ أَنَّهُ قَدْ أَسَاءَ فَيُطَالِبُهُ بِالْوَتَرِ (٣)، فَمَسَاوِئُ الْأَحْمَقِ لَا تَنْقَضِي وَعُيُوبُهُ لَا تَتَنَاهَى وَلَا يَقِفُ النَّظَرُ مِنْهَا إِلَى غَايَةٍ إِلَّا لَوَّحَتْ مَا وَرَاءَهَا مِمَّا هُوَ أَدْنَى مِنْهَا، وَأَزْدَى، وَأَمَرُّ، وَأَدْهَى، فَمَا أَكْثَرَ الْعِبَرَ لِمَنْ نَظَرَ، وَأَنْفَعَهَا لِمَنِ اعْتَبَرَ.

وَقَالَ الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ (٤): مِنْ كُلِّ شَيْءٍ يُحْفَظُ الْأَحْمَقُ إِلَّا مِنْ نَفْسِهِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: إِنَّ الدُّنْيَا رُبَّمَا أَقْبَلَتْ عَلَى الْجَاهِلِ بِالاتِّفَاقِ، وَأَدْبَرَتْ عَنِ الْعَاقِلِ بِالاسْتِحْقَاقِ. فَإِنْ أَتَتْكَ مِنْهَا سُهْمَةٌ مَعَ جَهْلٍ، أَوْ فَاتَتْكَ مِنْهُ بُغْيَةٌ مَعَ عَقْلٍ، فَلَا يَحْمِلَنَّكَ ذَلِكَ عَلَى الرَّغْبَةِ فِي الْجَهْلِ،

---

(١) نسبها في روضة العقلاء لأبي حاتم البستي إلى محمد بن إسحاق من حبيب الواسطي ص١٣.

(٢) أي ذلة وحقارة. (٣) أي بالحقد والكراهية والعداوة.

(٤) الأحنف ابن قيس بن معاوية من أجواد العرب، أدرك النبي ﷺ ولم يره، ولذا عده في التابعين توفى سنة ٦٧هـ.

والزُّهْدِ فِي الْعَقْلِ. فَدَوْلَةُ الْجَاهِلِ مِنَ الْمُمْكِنَاتِ، ودَوْلَةُ الْعَاقِلِ مِنَ الْوَاجِبَاتِ. وَلَيْسَ مَنْ أَمْكَنَهُ شَيءٌ مِنْ ذَاتِهِ، كَمَنْ اسْتَوْجَبَهُ بِآلَتِهِ، وأَدَوَاتِهِ. وَبَعْدُ فَدَوْلَةُ الْجَاهِلِ كَالْغَرِيبِ الَّذِي يَحِنُّ إِلَى النُّقْلَةِ، وَدَوْلَةُ الْعَاقِلِ كَالنَّسِيبِ الَّذِي يَحِنُّ إِلَى الْوَصْلَةِ. فَلَا يَفْرَحُ الْمَرْءُ بِحَالَةٍ جَلِيلَةٍ نَالَهَا بِغَيْرِ عَقْلٍ، ومَنْزِلَةٍ رَفِيعَةٍ حَلَّهَا بِغَيْرِ فَضْلٍ. فَإِنَّ الْجَهْلَ يُنْزِلُهُ مِنْهَا، ويُزِيلُهُ عَنْهَا، ويَحُطُّهُ إِلَى رُتْبَتِهِ، ويَرُدُّهُ إِلَى قِيمَتِهِ، بَعْدَ أَنْ تَظْهَرَ عُيُوبُهُ، وَتَكْثُرَ ذُنُوبُهُ، ويَصِيرَ مَادِحُهُ هَاجِيًا، وَوَلِيُّهُ مُعَادِيًا. واعْلَمْ أَنَّهُ بِحَسَبِ مَا يُنْشَرُ مِنْ فَضَائِلِ الْعَاقِلِ، كَذَلِكَ يَظْهَرُ مِنْ رَذَائِلِ الْجَاهِلِ، حَتَّى يَصِيرَ مَثَلًا فِي الْغَابِرِينَ، وَحَدِيثًا فِي الْآخِرِينَ، مَعَ هَتْكِهِ فِي عَصْرِهِ، وقُبْحِ ذِكْرِهِ فِي دَهْرِهِ، كَالَّذِي رَوَاهُ عَطَاءٌ عَنْ جَابِرٍ قَالَ: كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ لَهُ حِمَارٌ، فَقَالَ: يَا رَبِّ لَوْ كَانَ لَكَ حِمَارٌ لَعَلَفْتُه مَعَ حِمَارِي، فَهَمَّ بِهِ نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: إِنَّمَا أُثِيبُ كُلَّ إِنْسَانٍ عَلَى قَدْرِ عَقْلِهِ.

وَاسْتَعْمَلَ مُعَاوِيَةُ رَجُلًا مِنْ كَلْبٍ[1] فَذُكِرَ الْمَجُوسُ يَوْمًا عِنْدَهُ فَقَالَ: لَعَنَ اللَّهُ الْمَجُوسَ يَنْكِحُونَ أُمَّهَاتِهِمْ، وَاللَّهِ لَوْ أُعْطِيتُ عَشَرَةَ آلَافِ دِرْهَمٍ مَا نَكَحْتُ أُمِّي.

فَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: قَبَّحَهُ اللَّهُ - أَتَرَوْنَهُ لَوْ زَادُوهُ فَعَلَ؟ وَعَزَلَهُ وَوَلَّى الرَّبِيعَ الْعَامِرِيَّ- وَكَانَ مِنَ النَّوْكَى[2] - عَلَى سَائِرِ الْيَمَامَةِ فَقَادَ[3] كَلْبًا بِكَلْبٍ فَقَالَ فِيهِ الشَّاعِرُ:

شَهِدْتُ بِأَنَّ اللَّهَ حَقًّا لِقَاؤُهُ ... وَأَنَّ الرَّبِيعَ الْعَامِرِيَّ رَقِيعُ

أَقَادَ لَنَا كَلْبًا بِكَلْبٍ وَلَمْ يَدَعْ ... دِمَاءَ كِلَابِ الْمُسْلِمِينَ تَضِيعُ

وَلَيْسَ لِمَعَارِّ الْجَهْلِ غَايَةٌ، وَلَا لِمِضَارِّ الْحُمْقِ نِهَايَةٌ. قَالَ الشَّاعِرُ:

لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ يُسْتَطَبُّ بِهِ ... إِلَّا الْحَمَاقَةَ أَعْيَتْ مَنْ يُدَاوِيهَا[4]

[العقل والهوى]

وأَمَّا الْهَوَى فَهُوَ عَنِ الْخَيْرِ صَادٌّ، وَلِلْعَقْلِ مُضَادٌّ؛ لِأَنَّهُ يُنْتِجُ مِنَ الْأَخْلَاقِ قَبَائِحَهَا، ويُظْهِرُ مِنَ الْأَفْعَالِ فَضَائِحَهَا، وَيَجْعَلُ سِتْرَ الْمُرُوءَةِ مَهْتُوكًا، ومَدْخَلَ الشَّرِّ مَسْلُوكًا.

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: الْهَوَى إِلَهٌ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ.

---

(١) قبيلة «كلب» من عرب اليمن، كانت تسكن أرض «السماوة» بين الشام والعراق، تزوَّج منهم معاوية بن أبي سفيان.

(٢) النوكي: الحمقى.

(٣) أي قتل منهم كلبًا بكلب قصاصًا، وعلى هذا فالقود: القصاص.

(٤) البيت في ربيع الأبرار للزمخشري غير منسوب ١/ ٣٦٩.

ثُمَّ تَلَا: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وَقَالَ عِكْرِمَةُ فِي قَوْلِه تَعَالى: ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ يَعْنِي بالشَّهَوَاتِ ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ يَعْنِي بالتَّوْبَةِ ﴿وَٱرْتَبْتُمْ﴾ يَعْنِي فِي أَمْرِ اللَّهِ ﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ﴾ يَعْنِي بالتَّسْوِيفِ ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ يَعْنِي المَوْتَ ﴿وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [الحديد: ١٤] يَعْنِي الشَّيْطَانَ. وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «طَاعَةُ الشَّهْوَةِ دَاءٌ، وَعِصْيَانُهَا دَوَاءٌ»[(١)]، وَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ﷺ: اقْدَعُوا[(٢)] هَذِهِ النُّفُوسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا فَإِنَّهَا طَلِعَةٌ[(٣)] تَنْزِعُ إِلَى شَرِّ غَايَةٍ.

إِنَّ هَذَا الْحَقَّ ثَقِيلٌ مَرِيٌّ[(٤)]، وَإِنَّ الْبَاطِلَ خَفِيفٌ وَبِيٌّ[(٥)]، وَتَرْكُ الْخَطِيئَةِ خَيْرٌ مِنْ مُعَالَجَةِ التَّوْبَةِ وَرُبَّ نَظْرَةٍ زَرَعَتْ شَهْوَةً، وَشَهْوَةِ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَوِيلًا.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: أَخَافُ عَلَيْكُمُ اثْنَيْنِ: اتِّبَاعَ الْهَوَى وَطُولَ الْأَمَلِ، فَإِنَّ اتِّبَاعَ الْهَوَى يَصُدُّ عَنِ الْحَقِّ، وَطُولَ الْأَمَلِ يُنْسِي الْآخِرَةَ.

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ: إِنَّمَا سُمِّيَ الْهَوَى هَوًى؛ لِأَنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ.

وَقَالَ أَعْرَابِيٌّ: الْهَوَى هَوَانٌ وَلَكِنْ غَلِطَ بِاسْمِهِ، فَأَخَذَهُ الشَّاعِرُ وَقَالَ:

إِنَّ الْهَوَانَ هُوَ الْهَوَى قُلِبَ اسْمُهُ ... فَإِذَا هَوِيتَ فَقَدْ لَقِيتَ هَوَانَا[(٦)]

وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ الْحِكَمِ: مَنْ أَطَاعَ هَوَاهُ، أَعْطَى عَدُوَّهُ مُنَاهُ، وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْعَقْلُ صَدِيقٌ مَقْطُوعٌ، وَالْهَوَى عَدُوٌّ مَتْبُوعٌ، وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: أَفْضَلُ النَّاسِ مَنْ عَصَى هَوَاهُ، وَأَفْضَلُ مِنْهُ مَنْ رَفَضَ دُنْيَاهُ. وَقَالَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَعْصِ الْهَوَى قَادَكَ الْهَوَى ... إِلَى كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ

قَالَ ابْنُ الْمُعْتَزِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: لَمْ يَقُلْ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ سِوَى هَذَا الْبَيْتِ.

وَقَالَ الشَّاعِرُ:

---

(١) ذكره السيوطي في جمع الجوامع ولم يعزه ٢/ ٧١٦.

(٢) اقدعوا: امنعوا.

(٣) في المطبوع «طلاعة»، والصواب: ما أثبتهُ «طلعه»، وهي هكذا في منهاج اليقين بشرح أدب الدنيا والدين.

(٤) فسَّرها المرحوم العلامة مصطفى السقا بقوله: مري بالياء المشددة: أي كالمري في إصلاح البدن، أي إن منع النفس عن شهواتها، وإن كان ثقيلًا عليها فقد يحفظ صحة الروح، كما يحفظ المري صحة البدن، أفاده الشارح في منهاج اليقين. والمري دواء قديم معروف عند الأطباء، استنبطه الكلدانيون، ذكروا من فوائده أشياء كثيرة. قال الشيخ داود الأنطاكي في التذكرة: من الأدوية القديمة التي استخرجها الكلدانيون والقبط.. يستأصل شأفة البلغة بقوة، والأخلاط اللزجة، ويغسل اللفائف والبطن من الديدان والحيات والأخلاط الفاسدة، غسلًا لا يعدله غيره، ويدر الفضلات، ويشهي، ويمنع التخم، وفساد الأطعمة... إلخ.

(٥) أصلها: ويي، وهو الوخيم.

(٦) انظر محاضرات الأدباء ١/ ٣٠.

إِذَا مَا رَأَيْتَ الْمَرْءَ يَقْتَادُهُ الْهَوَى ... فَقَدْ نَكَلَتْهُ عِنْدَ ذَاكَ ثَوَاكِلُهْ[1]

وَقَدْ أَشْمَتَ الْأَعْدَاءَ جَهْلًا بِنَفْسِهِ ... وَقَدْ وَجَدَتْ فِيهِ مَقَالًا عَوَاذِلُهْ

وَمَا يَرْدَعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ عَنْ الْهَوَى ... مِنْ النَّاسِ إِلَّا حَازِمُ الرَّأْيِ كَامِلُهْ

فَلَمَّا كَانَ الْهَوَى غَالِبًا، وَإِلَى سَبِيلِ الْمَهَالِكِ مُورِدًا، جَعَلَ الْعَقْلَ عَلَيْهِ رَقِيبًا مُجَاهِدًا يُلَاحِظُ عَثْرَةَ غَفْلَتِهِ، وَيَدْفَعُ بَادِرَةَ سَطْوَتِهِ، وَيَدْفَعُ خِدَاعَ حِيلَتِهِ؛ لِأَنَّ سُلْطَانَ الْهَوَى قَوِيٌّ، وَمَدْخَلَ مَكْرِهِ خَفِيٌّ. وَمِنْ هَذَيْنِ الْوَجْهَيْنِ يُؤْتَى الْعَاقِلُ حَتَّى تَنْفُذَ أَحْكَامُ الْهَوَى عَلَيْهِ أَعْنِي بِأَحَدِ الْوَجْهَيْنِ: قُوَّةِ سُلْطَانِهِ وَبِالْآخَرِ خَفَاءِ مَكْرِهِ. فَأَمَّا الْوَجْهُ الْأَوَّلُ فَهُوَ أَنْ يَقْوَى سُلْطَانُ الْهَوَى بِكَثْرَةِ دَوَاعِيهِ حَتَّى يَسْتَوْلِيَ عَلَيْهِ مُغَالَبَةُ الشَّهَوَاتِ فَيَكِلُّ الْعَقْلُ عَنْ دَفْعِهَا، وَيَضْعُفُ عَنْ مَنْعِهَا، مَعَ وُضُوحِ قُبْحِهَا فِي الْعَقْلِ الْمَقْهُورِ بِهَا، وَهَذَا يَكُونُ فِي الْأَحْدَاثِ أَكْثَرَ وَعَلَى الشَّبَابِ أَغْلَبَ؛ لِقُوَّةِ شَهَوَاتِهِمْ؛ وَكَثْرَةِ دَوَاعِي الْهَوَى الْمُتَسَلِّطِ عَلَيْهِمْ وَإِنَّهُمْ رُبَّمَا جَعَلُوا الشَّبَابَ عُذْرًا لَهُمْ، كَمَا قَالَ مُحَمَّدُ ابْنُ بَشِيرٍ:

كُلٌّ يَرَى أَنَّ الشَّبَابَ لَهُ ... فِي كُلِّ مُبْلِغَ لَذَّةٍ عُذْرَا

وَلِذَلِكَ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْهَوَى مَلِكٌ غَشُومٌ، وَمُتَسَلِّطٌ ظَلُومٌ. وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ: الْهَوَى عَسُوفٌ، وَالْعَدْلُ مَأْلُوفٌ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

يَا عَاقِلًا أَرْدَى الْهَوَى عَقْلَهُ ... مَالَكَ قَدْ سُدَّتْ عَلَيْكَ الْأُمُورُ

أَتَجْعَلُ الْعَقْلَ أَسِيرَ الْهَوَى ... إِنَّمَا الْعَقْلُ عَلَيْهِ أَمِيرُ

وَحَسْمُ ذَلِكَ أَنْ يَسْتَعِينَ بِالْعَقْلِ عَلَى النَّفْسِ النَّفُورَةِ فَيُشْعِرَهَا مَا فِي عَوَاقِبِ الْهَوَى مِنْ شِدَّةِ الضَّرَرِ، وَقُبْحِ الْأَثَرِ، وَكَثْرَةِ الْإِجْرَامِ، وَتَرَاكُمِ الْآثَامِ.

فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حُفَّتْ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتْ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ»[2]، أَخْبَرَ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْجَنَّةِ احْتِمَالُ الْمَكَارِهِ، وَالطَّرِيقَ إِلَى النَّارِ اتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ﷺ: إِيَّاكُمْ وَتَحْكِيمَ الشَّهَوَاتِ عَلَى أَنْفُسِكُمْ فَإِنَّ عَاجِلَهَا ذَمِيمٌ، وَآجِلَهَا وَخِيمٌ، فَإِنْ لَمْ تَرَهَا تَنْقَادُ بِالتَّحْذِيرِ وَالْإِرْهَابِ، فَسَوِّفْهَا بِالتَّأْمِيلِ وَالْإِرْغَابِ، فَإِنَّ الرَّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ إِذَا اجْتَمَعَا عَلَى النَّفْسِ ذَلَّتْ لَهُمَا وَانْقَادَتْ.

---

(١) في المطبوعة، يعتاده، والصواب يقتاده، من قولهم: اقتاد الدابة أي سحبها من أمامها.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٨٧، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٢٣.

وَقَدْ قَالَ ابْنُ السَّمَّاكِ: كُنْ لِهَوَاكَ مُسَوِّفًا، ولِعَقْلِكَ مُسْعِفًا، وانْظُرْ إِلَى مَا تَسُوءُ عَاقِبَتُهُ فَوَطِّنْ نَفْسَكَ عَلَى مُجَانَبَتِهِ فَإِنَّ تَرْكَ النَّفْسِ وَمَا تَهْوَى دَاؤُهَا، وَتَرْكَ مَا تَهْوَى دَوَاؤُهَا، فَاصْبِرْ عَلَى الدَّوَاءِ، كَمَا تَخَافُ مِنَ الدَّاءِ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

صَبَرْتُ عَلَى الْأَيَّامِ حَتَّى تَوَلَّتِ ... وَأَلْزَمْتُ نَفْسِي صَبْرَهَا فَاسْتَمَرَّتِ

وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى ... فَإِنْ طَمِعَتْ تَاقَتْ وَإِلَّا تَسَلَّتِ[1]

فَإِذَا انْقَادَتِ النَّفْسُ لِلْعَقْلِ بِمَا قَدْ أُشْعِرَتْ مِنْ عَوَاقِبِ الْهَوَى لَمْ يَلْبَثِ الْهَوَى أَنْ يَصِيرَ بِالْعَقْلِ مَدْحُورًا، وَبِالنَّفْسِ مَقْهُورًا، ثُمَّ لَهُ الْحَظُّ الْأَوْفَى فِي ثَوَابِ الْخَالِقِ وَثَنَاءِ الْمَخْلُوقِينَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١].

وَقَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: أَفْضَلُ الْجِهَادِ جِهَادُ الْهَوَى.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: أَعَزُّ الْعِزِّ الِامْتِنَاعُ مِنْ مِلْكِ الْهَوَى.

وَقَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ: خَيْرُ النَّاسِ مَنْ أَخْرَجَ الشَّهْوَةَ مِنْ قَلْبِهِ، وَعَصَى هَوَاهُ فِي طَاعَةِ رَبِّهِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْأُدَبَاءِ: مَنْ أَمَاتَ شَهْوَتَهُ، فَقَدْ أَحْيَا مُرُوءَتَهُ.

وَقَالَ بَعْضُ الْعُلَمَاءِ: رَكَّبَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ مِنْ عَقْلٍ بِلَا شَهْوَةٍ، وَرَكَّبَ الْبَهَائِمَ مِنْ شَهْوَةٍ بِلَا عَقْلٍ، وَرَكَّبَ ابْنَ آدَمَ مِنْ كِلَيْهِمَا؛ فَمَنْ غَلَّبَ عَقْلَهُ عَلَى شَهْوَتِهِ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَلَى عَقْلِهِ فَهُوَ شَرٌّ مِنَ الْبَهَائِمِ[2].

وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: مَنْ أَشْجَعُ النَّاسِ، وأَحْرَاهُمْ بِالظَّفَرِ فِي مُجَاهَدَتِهِ؟ قَالَ: مَنْ جَاهَدَ الْهَوَى طَاعَةً لِرَبِّهِ، واخْتَرَسَ فِي مُجَاهَدَتِهِ مِنْ وُرُودِ خَوَاطِرِ الْهَوَى عَلَى قَلْبِهِ. وَقَالَ بَعْضُ الشُّعَرَاءِ:

قَدْ يُدْرِكُ الْحَازِمُ ذُو الرَّأْيِ الْمُنَى ... بِطَاعَةِ الْحَزْمِ وَعِصْيَانِ الْهَوَى

وَأَمَّا الْوَجْهُ الثَّانِي: فَهُوَ أَنْ يُخْفِيَ الْهَوَى بِكُرْهٍ حَتَّى تَتَمَوَّهَ أَفْعَالُهُ عَلَى الْعَقْلِ فَيَتَصَوَّرُ الْقَبِيحَ حَسَنًا وَالضَّرَرَ نَفْعًا. وَهَذَا يَدْعُو إِلَيْهِ أَحَدُ شَيْئَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَكُونَ لِلنَّفْسِ مَيْلٌ إِلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ فَيَخْفَى عَنْهَا الْقَبِيحُ لِحُسْنِ ظَنِّهَا وَتَتَصَوَّرُهُ حَسَنًا لِشِدَّةِ مَيْلِهَا.

وَلِذَلِكَ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «حُبُّكَ الشَّيْءَ يُعْمِي وَيُصِمُّ»[3].

أَيْ يُعْمِي عَنْ الرُّشْدِ وَيُصِمُّ عَنْ الْمَوْعِظَةِ. وَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: الْهَوَى عَمًى.

---

(١) تسلَّت: نسيت هواجسها.
(٢) انظر هذه الأخبار في الكامل للمبرد ٣/ ٩٧.
(٣) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٩٤، وأبو داود في السنن ٥١٣٠ وضعفه الألباني، انظر السلسلة الضعيفة ١٨٦٨.

قَالَ الشَّاعِرُ:

حَسَنٌ فِي كُلِّ عَيْنٍ مَنْ تَوَدُّ

وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُعَاوِيَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ[1]:

وَلَسْتَ بِرَاءٍ عَيْبَ ذِي الْوُدِّ كُلَّهِ ... وَلَا بَعْضَ مَا فِيهِ إِذَا كُنْتَ رَاضِيَا

فَعَيْنُ الرِّضَى عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيلَةٌ ... وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي الْمَسَاوِيَا

وَأَمَّا السَّبَبُ الثَّانِي: فَهُوَ اشْتِغَالُ الْفِكْرِ فِي تَمْيِيزِ مَا اشْتَبَهَ فَيَطْلُبُ الرَّاحَةَ فِي اتِّبَاعِ مَا اسْتَسْهَلَ حَتَّى يَظُنَّ أَنَّ ذَلِكَ أَوْفَقُ أَمْرَيْهِ، وَأَحْمَدُ حَالَيْهِ، اغْتِرَارًا بِأَنَّ الْأَسْهَلَ مَحْمُودٌ وَالْأَعْسَرَ مَذْمُومٌ فَلَنْ يَعْدَمَ أَنْ يَتَوَرَّطَ بِخِدَعِ الْهَوَى وَرِيبَةِ الْمَكْرِ فِي كُلِّ مَخُوفٍ حَذِرٍ، وَمَكْرُوهٍ عَسِرٍ. وَلِذَلِكَ قَالَ عَامِرُ بْنُ الظَّرِبِ: الْهَوَى يَقْظَانُ وَالْعَقْلُ رَاقِدٌ فَمِنْ ثَمَّ غَلَبَ. وَقَالَ سُلَيْمَانُ بْنُ وَهْبٍ: الْهَوَى أَمْنَعُ، وَالرَّأْيُ أَنْفَعُ.

وَقِيلَ فِي الْمَثَلِ: الْعَقْلُ وَزِيرٌ نَاصِحٌ، وَالْهَوَى وَكِيلٌ فَاضِحٌ. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا الْمَرْءُ أَعْطَى نَفْسَهُ كُلَّمَا اشْتَهَتْ ... وَلَمْ يَنْهَهَا تَاقَتْ إِلَى كُلِّ بَاطِلِ

وَسَاقَتْ إِلَيْهِ الْإِثْمَ وَالْعَارَ بِالَّذِي ... دَعَتْهُ إِلَيْهِ مِنْ حَلَاوَةِ عَاجِلِ

وَحَسْمُ السَّبَبِ الْأَوَّلِ أَنْ يَجْعَلَ فِكْرَ قَلْبِهِ حَكَمًا عَلَى نَظَرِ عَيْنِهِ. فَإِنَّ الْعَيْنَ رَائِدُ الشَّهْوَةِ، وَالشَّهْوَةَ مِنْ دَوَاعِي الْهَوَى، وَالْقَلْبَ رَائِدُ الْحَقِّ وَالْحَقَّ مِنْ دَوَاعِي الْعَقْلِ.

وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: نَظَرُ الْجَاهِلِ بِعَيْنِهِ وَنَاظِرِهِ، وَنَظَرُ الْعَاقِلِ بِقَلْبِهِ وَخَاطِرِهِ، ثُمَّ يَتَّهِمُ نَفْسَهُ فِي صَوَابِ مَا أَحَبَّتْ وَتَحْسِينِ مَا اشْتَهَتْ؛ لِيَصِحَّ لَهُ الصَّوَابُ وَيَتَبَيَّنَ لَهُ الْحَقُّ، فَإِنَّ الْحَقَّ أَثْقَلُ مَحْمَلًا، وَأَصْعَبُ مَرْكَبًا فَإِنْ أَشْكَلَ عَلَيْهِ أَمْرَانِ اجْتَنَبَ أَحَبَّهُمَا إِلَيْهِ، وَتَرَكَ أَسْهَلَهُمَا عَلَيْهِ. فَإِنَّ النَّفْسَ عَنِ الْحَقِّ أَنْفَرُ، وَلِلْهَوَى آثَرُ.

وَقَدْ قَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: إِذَا اشْتَبَهَ عَلَيْكَ أَمْرَانِ فَدَعْ أَحَبَّهُمَا إِلَيْكَ، وَخُذْ أَثْقَلَهُمَا عَلَيْكَ. وَعِلَّةُ هَذَا الْقَوْلِ هُوَ أَنَّ الثَّقِيلَ يُبْطِئُ النَّفْسَ عَنِ التَّسَرُّعِ إِلَيْهِ فَيَتَّضِحُ مَعَ الْإِبْطَاءِ وَتَطَاوُلِ الزَّمَانِ صَوَابُ مَا اسْتَعْجَمَ، وَظُهُورُ مَا اسْتَبْهَمَ.

---

(١) كان بينه وبين الحسين بن عبد الله بن العباس صداقة، ثم وقعت بينهما مخاصمة، فتهاجرا فقال عبد الله:

إِنَّ حُسَيْنًا كَانَ شَيْئًا مُلَفَّقَا ... فَمَحَّضَهُ التَّكْشِيفُ حَتَّى بَدَا لَيَا

وَأَنْتَ أَخِي مَا لَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةٌ ... فَإِنْ عَرَضَتْ أَيْقَنْتُ أَنْ لَا أَخَا لِيَا

ولست براء ... إلخ ... البيتين «عن منهاج اليقين».

وَقَدْ قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: مَنْ تَفَكَّرَ أَبْصَرَ والمَحْبُوبُ أَسْهَلُ شَيْءٍ تُسْرِعُ النَّفْسُ إِلَيْهِ، وَتُعَجِّلُ بِالإِقْدَامِ عَلَيْهِ، فَيَقْصُرُ الزَّمَانُ عَنْ تَصَفُّحِهِ وَيَفُوتُ اسْتِدْرَاكُهُ لِتَقْصِيرِ فِعْلِهِ فَلَا يَنْفَعُ التَّصَفُّحُ[1] بَعْدَ الْعَمَلِ وَلَا الاسْتِبَانَةُ بَعْدَ الْفَوْتِ. وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَا كَانَ عَنْكَ مُعْرِضًا، فَلَا تَكُنْ بِهِ مُتَعَرِّضًا. وَقَالَ الشَّاعِرُ:

أَلَيْسَ طِلَابُ مَا قَدْ فَاتَ جَهْلًا ... وَذِكْرُ الْمَرْءِ مَا لَا يَسْتَطِيعُ

وَلَقَدْ وَصَفَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ حَالَ الْهَوَى وَمَا يُقَارِنُهُ مِنْ مِحَنِ الدُّنْيَا فَقَالَ: الْهَوَى مَطِيَّةُ الْفِتْنَةِ، والدُّنْيَا دَارُ الْمِحْنَةِ، فَانْزِلْ عَنْ الْهَوَى تَسْلَمْ، واعْرِضْ عَنْ الدُّنْيَا تَغْنَمْ، وَلَا يَغُرَّنَّكَ هَوَاكَ بِطِيبِ الْمَلَاهِي وَلَا تَفْتِنُكَ دُنْيَاكَ بِحُسْنِ الْعَوَارِي. فَمُدَّةُ اللَّهْوِ تَنْقَطِعُ وَعَارِيَّةُ الدَّهْرِ تُرْتَجَعُ[2]، ويَبْقَى عَلَيْكَ مَا تَرْتَكِبُهُ مِنْ الْمَحَارِمِ، وتَكْتَسِبُهُ مِنْ الْمَآثِمِ.

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْجَعْفَرِيُّ[3]: سَمِعَتْنِي امْرَأَةٌ بِالطَّوَافِ، وأَنَا أُنْشِدُ:

أَهَوَى هَوَى الدِّينِ وَاللَّذَاتُ تُعْجِبُنِي ... فَكَيْفَ لِي بِهَوَى اللَّذَاتِ والدِّينِ

فَقَالَتْ: هُمَا ضَرَّتَانِ فَذَرْ أَيَّهُمَا شِئْتَ وَخُذْ الْأُخْرَى.

فَأَمَّا فَرْقُ مَا بَيْنَ الْهَوَى والشَّهْوَةِ مَعَ اجْتِمَاعِهِمَا فِي الْعِلَّةِ والمَعْلُولِ، واتِّفَاقِهِمَا فِي الدَّلَالَةِ والمَدْلُولِ، فَهُوَ أَنَّ الْهَوَى مُخْتَصٌّ بِالْآرَاءِ والاعْتِقَادَاتِ، والشَّهْوَةَ مُخْتَصَّةٌ بِنَيْلِ اللَّذَّةِ. فَصَارَتْ الشَّهْوَةُ مِنْ نَتَائِجِ الْهَوَى وَهِيَ أَخَصُّ، والْهَوَى أَصْلٌ هُوَ أَعَمُّ.

وَنَحْنُ نَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَكْفِينَا دَوَاعِيَ الْهَوَى، ويَصْرِفَ عَنَّا سُبُلَ الرَّدَى، ويَجْعَلَ التَّوْفِيقَ لَنَا قَائِدًا، والْعَقْلَ لَنَا مُرْشِدًا.

فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَوْحَى إِلَى عِيسَى عليه السلام: عِظْ نَفْسَكَ فَإِنْ اتَّعَظَتْ فَعِظْ النَّاسَ وَإِلَّا فَاسْتَحْيِ مِنِّي. وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ كُنَاسَةَ:

مَا مَنْ رَوَى أَدَبًا وَلَمْ يَعْمَلْ بِهِ ... وَيَكُفَّ عَنْ زَيْغِ الْهَوَى بِأَدِيبِ

حَتَّى يَكُونَ بِمَا تَعَلَّمَ عَامِلًا ... مِنْ صَالِحٍ فَيَكُونَ غَيْرَ مَعِيبِ

وَلَقَلَّمَا تُغْنِي إِصَابَةُ قَائِلٍ ... أَفْعَالُهُ أَفْعَالُ غَيْرِ مُصِيبِ

---

(١) التصفح: طول التأمل. (٢) في طبعة بولاق، ترجع، وما ذكرته هنا من منهاج اليقين وهو الأصوب.
(٣) هو الإمام علي بن المديني شيخ المحدثين وإمامهم توفى سنة ٢٣٤هـ.

وَقال آخَرُ[1]:

يَـا أَيُّـهَـا الـرَّجُـلُ الـمُـعَـلِّمُ غَـيْـرَهُ ... هَـلَّا لِـنَـفْـسِـك كَـانَ ذَا التَّعْلِيمُ

تَصِفُ الدَّوَاءَ لِذِي السَّقَامِ وَذِي الضَّنَى ... كَـيْـمَـا يَـصِـحَّ بِـهِ وأَنْـتَ سَقِيمُ

ابْـدَأْ بِنَفْسِك فانْهَهَا عَـنْ غَيِّهَا ... فَـإِذَا انْـتَـهَـتْ عَـنْـهُ فـأَنْـتَ حَكِيمُ

فَهُنَاكَ تُـعْـذَرُ إنْ وَعَـظْـتَ وَيُقْتَدَى ... بِـالْـقَـوْلِ مِـنْـك وَيُـقْـبَـلُ التَّعْلِيمُ

لَا تَـنْـهَ عَـنْ خُـلُـقٍ وَتَـأْتِـي مِـثْـلَـهُ ... عَـارٌ عَـلَـيْـكَ إذَا فَـعَـلْـتَ عَظِيمُ

حَكَى أَبُو فَرْوَةَ[2] أَنَّ طَارِقًا صَاحِبَ شُرْطَةِ خَالِدٍ الْقَسْرِيِّ[3] مَرَّ بِابْنِ شُبْرُمَةَ[4] وَطَارِقٍ فِي مَوْكِبِهِ فَقَالَ ابْنُ شُبْرُمَةَ:

أَرَاهَـا وإنْ كَـانَـتْ تَـحُـبُّ كَأَنَّهَا ... سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَرِيبٍ تَقَشَّعُ[5]

اللَّهُمَّ لِي دِينِي وَلَهُمْ دُنْيَاهُمْ. فَاسْتُعْمِلَ ابْنُ شُبْرُمَةَ بَعْدَ ذَلِكَ عَلَى الْقَضَاءِ فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ أَبُو بَكْرٍ: أَتَذْكُرُ قَوْلَكَ يَوْمَ كَذَا إذْ مَرَّ بِكَ طَارِقٌ فِي مَوْكِبِهِ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إنَّهُمْ يَجِدُونَ مِثْلَ أَبِيكَ وَلَا يَجِدُ أَبُوكَ مِثْلَهُمْ. إنَّ أَبَاكَ أَكَلَ مِنْ حَلَاوَتِهِمْ، فَحُطَّ[6] فِي أَهْوَائِهِمْ.

أَمَا تَرَى هَذَا الدَّيِّنَ الْفَاضِلَ كَيْفَ عُوجِلَ بِالتَّفْرِيعِ وَقُوبِلَ بِالتَّوْبِيخِ مِنْ أَخَصِّ ذَوِيهِ، وَلَعَلَّهُ مِنْ أَبَرِّ بَنِيهِ. فَكَيْفَ بِنَا وَنَحْنُ أَطْلَقُ مِنْهُ عَنَانًا، وَأَفْلَقُ مِنْهُ جَنَانًا. إذَا رَمَقْنَا أَعْيُنُ الْمُتَتَبِّعِينَ، وَتَنَاوَلَتْنَا أَلْسُنُ الْمُتَعَنِّتِينَ. هَلْ نَجِدُ غَيْرَ تَوْفِيقِ اللَّهِ تَعَالَى مَلَاذًا، وَسِوَى عِصْمَتِهِ مَعَاذًا؟

---

(١) نُسبت هذه الأبيات للإمام الشافعي، وهي في ديوانه ٤٦، وقيل: هي لأبي الأسود الدؤلي، وقيل: للأخطل.

(٢) أبو فروة: هو عدي بن عدي الجزري الكندي التابعي، قال البخاري: هو سيد أهل الجزيرة. وكان عامل عمر بن عبد العزيز على الجزيرة والموصل. توفى سنة عشرين ومائة.

(٣) خالد بن عبد الله بن يزيد القسري البجلي، كان من أمراء الدولة الأموية، وأخا هشام من الرضاعة، ولاه هشام العراق بعد عمر بن هبيرة، وكان خالد جوادًا عظيم الهمة، وله أخبار ومكايد. توفى بالشام سنة ست وعشرين ومائة.

(٤) هو عبد الله بن شبرمة الكوفي القاضي، فقيه أهل الكوفة، وكان راوية شاعرًا خطيبًا ناسبًا، حاضر الجواب، وكان يشبه بعامر الشعبي، والبيت الذي تمثل به لعمران بن حطان.

(٥) معنى تقشع: تنكشف وتضمحل.

(٦) حُط في أهوائهم: أي سقط فيما سقطوا فيه، وقد ذكرت في طبعة بولاق، «فخبط» وماذكرتُه من منهاج اليقين، وهو الصواب.